الوفد الأباظى فى لندن

يوليو ١٩٠٨

جذور فكرة إرسال الوفود المصرية إلى إنجلترا

د. حمادة محمود إسماعيل

أستاذ التاريخ الحديث

بكلية آداب - بنها

الوفد الأباظى فى لندن
يوليو ١٩٠٨
جذور فكرة إرسال الوفود المصرية إلى إنجلترا

تمهيد

لم يكن عام ١٩٠٨ فى تاريخ مصر الحديث عاماً عادياً، بل حمل إلينا العديد من الحوادث التى جعلته يحتل مكانه خاصة، ففي بدايته وتحديداً فى فبراير، كان رحيل مصطفى كامل الزعيم والسياسي الشهير الذى ملأ الحياة السياسية فى مصر حيوية ونشاطاً وكتب اسمه بحروف من نور فى سجل الحركة الوطنية المصرية.

أما ثاني الحوادث، فكان الانقلاب الذى حدث فى الدولة العثمانية وأسمى «الانقلاب العثمانى» والذى كان وراؤه جماعة الاتحاد والترقي، وقد ترك هذا الانقلاب أثراً فى مصر تجلى فى الدعوة للمطالبة بالدستور(١).

ثالث الحوادث، تلك الدعوة التى وجهها إسماعيل باشا أباظة أحد أعيان المصريين وعضو مجلس شورى القوانين(٢) إلى الصحفيين لتناول الشاى بفندق الكونتنتال، وإبلاغهم عزمه السفر إلى لندن مع زملائه محمد باشا الشريعي عضو مجلس مديرية المنيا، السيد حسين القصبي عضو الجمعية العمومية ومجلس مديرية الغربية، وعبد اللطيف بك الصوفاني عضو الجمعية العمومية ومجلس مديرية البحيرة، وناشد بك حنا عضو الجمعية العمومية، ومحمد بك سالم المحامي. والهدف من الزيارة القيام بمهمة «.....سياسية يريدون أن تكون الصحف على بينة من حقيقتها».(٣)

وقبل أن يتواصل الحديث عن الوفد ومهمته، يجب التوقف أمام عدة أمور:

* إن الشخصيات المشار إليها تنتمي إلى شريحتين من شرائح المجتمع المصري، الأولى شريحة كبار الملاك الذين أسماهم الإنجليز «أصحاب المصالح الحقيقية».(٤) أما

الثانية فهى شريحة البورجوازية المصرية التى تحركت وطرحت نفسها كقيادة منذ الحملة الفرنسية على مصر.(٥)

* إنه ولأول مرة منذ الاحتلال البريطاني لمصر (١٨٨٢) يقوم وفد على هذا المستوى بزيارة العاصمة البريطانية ويجرى لقاءات مع بعض الساسة الإنجليز وهو ما يؤكد أن سياسة التفاوض مع الإنجليز منذ ١٩٢٠ لم تكن من فراغ.(٦)

* إن عبد العزيز الصوفاني -أحد أعضاء الوفد المذكور- كان أحد الشخصيات الموالية للحزب الوطنى وانضمامه إلى هذا الوفد يؤكد الصراعات التى بدأت تنشب داخل الحزب بعيد وفاة مصطفى كامل، وأن هناك خلافات حول سياسات الحزب.

* يشير أحد المصادر المعاصرة إلى أن الذى شجع على هذه الخطوة هو الخديو عباس الثاني، بل أنه زاد على ذلك، بأن طلب إلى السير الدون غورست التوصية عليه لدى وزارة الخارجية وقد فعل ذلك عملاً بسياسة الوفاق.(٧)

قبيل سفر الوفد:

فى تصورنا أن هناك العديد من الأسباب التى وقفت وراء اختيار هذا التوقيت لفتح قناة للاتصال مع الإنجليز للتعامل مع القضية المصرية بشكل جيد، أول هذه العوامل ما أشرنا إليه من قبل حول ما حدث من إنقلاب فى تركيا وما ترتب على ذلك من إرتفاع الأصوات المنادية بالدستور، أما الثاني فهو ما حدث من تغيير فى بعض سياسات إنجلترا تجـاه مصر، وهـو ما بدا من خلال استبدال المعتمد البريطاني لورد كرومر بآخر هو السير (الدون غورست) فى أعقاب حادث دنشواى، أما ثالثها، فيكمن فى محاولة كبار الملاك وفصائل البور جوازيين أن يكون لهم دور أكبر فى القيادة فى ظل تلك المتغيرات. أما رابع العوامل، فهو ما تولد عند البعض، بأنه من الصعب زحزحة الإنجليز من مصر، خاصة بعد ما تم من وفاق بينها وبين فرنسا فى عام١٩٠٤ ومن ثم كان البحث عن صيغة جديدة.

على أية حال، فعندما قرر إسماعيل أباظة والذين معه السفر إلى لندن، كانوا يعلمون أنهم أقدموا على خطوة خطيرة وهو ما جعل إسماعيل أباظة يبلغ الصحف عن عزمه ومن معه السفر، من خلال الدعوة التى وجهها لهم للإلتقاء فى فندق الكونتنتال مساء ١٣ يوليو، وفى الموعد المضروب ألقى فى المدعوين كلمة وضع فيها النقاط على الحروف من حيث الغاية التى يسعون إليها من السفر إلى لندن وأنهم سيعملون بصفتهم مصريين لا نوابا عن الأمة ولا عن حزب أو هيئة من الهيئات، وأن الغرض من السفر «رفع صوت التضرر والاستياء للأمة الانكليزية بعاصمة بلادها. أولاً: من ممانعة حكومتهم للحكومة المصرية من إجابة مطالب الجمعية العمومية، ثانياً: لتبديد الخرافات والأوهام التى ألصقها بهذه المطالب الحقة العادلة أعداء مصر والمصريين هنا وهناك، ثالثاً: من السياسة التى تسير عليها الحكومة الانكليزية فى بلادنا خصوصاً فى طريقة التعليم وتأخير الصناعة وحفظ الأمن وكيفية تصرفات بعض الأجانب فى المصالح التى يتولونها وحرمان ذوى الاستعداد والكفاءة من المصريين من الوظائف العمومية كلما سنحت الفرصة وساعدت على ذلك الظروف، وفى صرف الأموال وعلى الأخص الاحتياطي منها الذى هو عدة البلاد فى أوقات شدتها قبل أخذ رأى الأمة فى الوجوه التى تكيل فيها هذه الأموال كيلاً، وفى غير ذلك من الأعمال والإجراءات المشهورة التى تشكو منها خاصة المصريين وعامتهم فى جميع الأمور والمصالح والإدارات وبالجملة لتنبيه الأمة الانكليزية لحث حكومتها على الوفاء بوعودها وعهودها للمصريين الذين ينتظرون منها احترام تلك العهود».

أشار إسماعيل أباظة فى معرض حديثه إلى أهمية أن تكون لندن ملتقى أفاضل المصريين فى تيسير الاحتكاك بين الأمتين وتبادل الأفكار وما يمثله ذلك من مزايا للفريقين بدلاً من الحديث عن ظلم الإنجليز لنا فى مصر أى الانتقال من مجال الفعل إلى العقل. أيضاً نفى إسماعيل أباظة فى حديثه ما ردده البعض من هدفه والذين معه هو حب الظهور ولكنهم يسعون لخدمة بلادهم دون أن يكلفوها درهماً وأن الفائدة التى

يسعون إليها هى خدمة الأمة بأسرها، «وإذا فشلوا فى مهمتهم فلا خسارة على البلاد والفرق واضح بين من يسعى لخدمة بلاده ومن يقعد». ونفى فى خطابه أن فكرته فى السفر جاءت بإيعاز من أحد، وأشار إلى أن هذه الفترة من أنسب الفترات للتحرك. كما أشار أيضاً إلى مسألة فى غاية الأهمية وهى أن فكرة السفر هذه تم الترتيب لها فى العام الماضي ولأسباب خاصة بالذين فكروا فيها تأجلت إلى هذا العام. وفى ختام كلمته طلب من أصحاب الصحف فى مصر وطنية وأجنبية مساعدة الوفد فى مهمته.(٨)

على أية حال، فقد كانت هذه أول مرة يعلن فيها بعض المصريين، وعلى الملأ عن مثل هذه المهمة وتلك الخطوة الخطيرة، ومن ثم كان رد الفعل والذى كان بنفس قوة الفعل.

وجاء رد الفعل المضاد قوياً وسريعاً من قبل الحزب الوطني، أقوى الأحزاب المصرية آنذاك، فعلى لسان رئيسه محمد فريد أعلن فى حديث له إلى جريدة «جنيف» الصادرة فى ١٠ يوليو، حيث كان يجول فى أوروبا، أعلن أنه على ثقة من أن الوفد المذكور لن يسافر أبداً(٩) ، وفور عودته إلى مصر فى ١٤ يوليو كتب مقالاً طويلاً فى اللواء الصادر فى ١٨ يوليو أشار فيه إلى أن إنجلترا عندما رأت اشتداد ساعد الحركة الوطنية فى أعقاب حادث دنشواى ١٩٠٦، سعت وراء تكوين لجنة من بعض أعضاء مجلس العموم ورجال الصحافة وشكلت ما أسمته باللجنة البرلمانية المصرية «بدعوى الدفاع عن حقوق المصريين أمام الأمة الانكليزية ليوهموا المصريين بالمساعدة على نيل حقوقهم حتى ينسوا المطالبة بالجلاء أو يسكتوا عنه إن لم يحصلوا من بعضهم على الاعتراف به وقبوله ولو بصفة مؤقتة فأوفدوا المستر روبرستون فى أوائل ١٩٠٧ والدكتور روثرفورد فى أوائل هذا العام لدرس الشئون المصرية والاتفاق مع من يسمون أنفسهم بالمعتدلين على التوفيق بين مصالح المحتلين ومصالح المصريين (كأن هذا من الممكنات)، وكانت من نتائج هذه المساعي سفر بعضهم إلى لوندرة فى العام الماضي وحضورهم الوليمة المشهورة وإلقاء الخطب التى لم يزل صوتها يرن فى آذاننا». ثم تحدث عن وفد إسماعيل أباظة قائلاً

«لكنهم لما رأوا قيام الرأى العام على من صرح منهم لبعض الجرائد الانكليزية بقبوله الاحتلال مؤقتاً سعوا فى مصر بأن يكون الوفد فى هذا العام مؤلفاً من بعض الأعيان وذوى العائلات ليكون لكلامهم تأثير أوقع من وفد العام الماضي فعرضت هذه المأمورية على كثير من رجال الشورى وغيرهم فلم يقبل منهم بعد التى واللتيا من رافق سعادة إسماعيل باشا أباظة ذلك السياسي المحنك الذى لم يقبل الإنضمام إلى حزب الإصلاح وحزب الأمة ليكون فوق الأحزاب».

كذلك أشار محمد فريد فى كلمته إلى أن مطلب الجلاء لم يأت صريحاً فى خطبة إسماعيل أباظة وهو الأمر الذى تسعى إليه اللجنة البرلمانية المصرية، غير أن محمد فريد طالب الوفد بأن يزور أيضاً عواصم الدول الأكثر اشتغالاً بالأحوال المصرية مثل باريس وغيرها. وأنهى محمد فريد كلمته بتحذير المصريين من هذه السياسة «التى يراد بها تخدير أعصاب الحركة الوطنية ولا يغتروا بوعود اللجنة البرلمانية، وليكن الجلاء دائماً فى مقدمة المطالب الوطنية»(١٠) . من ناحية أخرى أشار محمد فريد فى مذكراته إلى أن هذا الوفد تم الاتفاق عليه بالاتفاق مع الخديوى ضمن سياسة الوفاق بين غورست والخديوى لمحاربة الحزب الوطني وأن الهدف هو «قتل الحزب الوطنى والاعتراف ضمناً بالاحتلال الانكليزي».(١١)

ولسنا هنا فى حاجة إلى التعليق على ما قاله محمد فريد ففى كلامه الكفاية بأن الوفد تم التخطيط له مع اللجنة البرلمانية وكان الاتهام صريحاً للوفد ورجاله بالخيانة.

وإذا كان هذا موقف الحزب الوطني، فإن جريدة مصر كان موقفها معادياً ولكن على طريقتها، فقد تبنت وجهة نظر بعض الأقباط فى معاداة الوفد وأخذ العداء أكثر من سبيل فناشد حنا أحد أعضاء الوفد، لم يوكله الأقباط للنيابة عنهم وتمثيلهم فى الوفد وأنه إذا لم يعتزل هذه المأمورية السياسية فسيضطر الأقباط إلى إبلاغ ولاة الأمور فى إنجلترا بعدم اعتباره نائباً عنهم، كذلك تناولت الصحيفة خطاب إسماعيل أباظة بالنقد وكيف أنه تصرف فى الأمور تصرفاً غير مستحسن عندما أعلن أنه ليس نائباً عن الأمة ولا عن هيئة

من الهيئات وأنه بذلك تخلص من الأمة قبل أنه يغادر مصر حتى لا يحاسبه أحد على ما سيفعل، وأنه حق على كل مصرى بذلك أن يحاسب هذا الوفد، وأدانت الصحيفة مسلك رئيس الحزب مسبقاً إذا طلب الجلاء العاجل وتفوه بعبارات الطيش ونادى بالدستور وكيف أن هذه العجلة تضر بمصالح مصر وأن طرق أبواب الإصلاح بالحكمة والتروى وحسن التفاهم مع المحتلين هو أفضل السبل لحل القضية.(١٢)

ومن خلال توجه صحيفة مصر يمكن التوقف أمام مسألتين:

الأولى: أن الجريدة ربطت ربطاً غير موفق بين مطالب الأقباط والإنجليز، وهو ما يحسب عليها حتى ولو كانت تمثل شريحة من الأقباط.

الثانية: جعلت الجريدة المسألة القبطية على رأس الأولويات التى كان يجب على الوفد الإعلان عنها كما أنها أسفرت عن أن مطلب الجلاء دون ضمانات سيضر بالأقباط وهو ما يحسب عليها أيضاً.

وعلى نفس الاتجاه المضاد سارت جريدة المباحث السياسية الأسبوعية، فوصفت أعضاء الوفد بعدم التبصر، فالضرر المتوقع من سفر الوفد مؤكد، لأن الإنجليز معروفون بانتهاز الفرص وسفر هذا الوفد إلى بلادهم ومفاوضتهم سيجعلهم يتصورون أن لهم حقاً شرعياً مقدساً فى بلادنا وليسوا مغتصبين وأن على المصريين أن يرسلوا الرسائل إلى إنجلترا وكل أوروبا يعلنوا فيها براءتهم من الوفد ومن الجاهلين السائرين ببلادنا فى سبيل الدمار المقتربين بنا إلى الهوة البعيدة القرار».(١٣)

إذا انتقلنا إلى الجانب المؤيد للوفد، وجدنا أن الجريدة لسان حال حزب الأمة جاءت على رأسها، فبالإضافة إلى أنها نشرت النص الكامل لكلمة إسماعيل أباظة مما يشير بالتأييد الكامل، فأنها نشرت رسالة لأحد الأقباط ويدعى نصيف جندى المنقبادى الطالب بجامعة باريس تناول فيها مسألة تمثيل أحد الأقباط فى الوفد وسار فى اتجاه مضاد لصحيفة مصر، وهاجم الذين تصدوا لناشد حنا أحد أعضاء الوفد، «وكيف أنهم أناس

يدوسون المصالح العامة المقدسة إرضاء لشهواتهم النفسانية وأمراضهم العقلية ومصالحهم وأن التعصب الديني قتل كل عاطفة وطنية شريفة فى نفوسهم حتى صاروا يكرهون الاستقلال والحرية ويسبحون بذكر الاحتلال مع أثرته واستبداده لمجرد كون الإنجليز نصارى مثلهم ليروجوا بضاعتهم بصناعتهم وليحصلوا على شيء من الشهرة ومن ثم قاموا يطعنون على أعضاء الوفد خصوصاً ناشد حنا». وأهاب نصيف المنقبادى بالأقباط ألا يعضدوا الفكرة التى دعا إليها بعض الأقباط بإرسال وفد قبطي إلى لندن لعرقلة مساعي وفد إسماعيل أباظة(١٤).

هكذا كان رأى الجريدة لسان حال حزب الأمة، والذى هو بالطبع رأى الحزب الذى كان ضمن رجاله سعد زغلول أول من فاوض الاستعمار فى شخص لورد ملنر فى عام ١٩٢٠.

أما حزب الإصلاح على المبادىء الدستورية فكان موقفه واضحاً تماماً، فلم يكن يتوقع وقد ذهب رئيسه فى العام الماضي إلى لندن والتقى مع بعض ساسة الإنجليز لم يكن يتوقع أن يقف موقفاً معارضاً، فقد نشرت المؤيد كامل خطاب إسماعيل أباظة مع مقدمة عن أهمية الاتصال بالإنجليز وفائدته، إضافة إلى بعض ما نشرته على لسان بعض كتابها عن أهمية الوفد وثناء على رجاله والتنبؤ بنجاح مهمته فى بلاد الإنجليز.(١٥)

وعلى درب التأييد جاء موقف جريدة المنبر لصاحبها أحمد حافظ عوض، وكذا صحف وادى النيل، الأهرام، الشرق.(١٦)

على أية حال فردود الأفعال بهذا الشكل المتباين كان وراءها عدة عوامل، أولها الحياة الحزبية والتى كانت حديثة عهد بالظهور وتباين وجهات نظر تلك الأحزاب، وثانيها تباين اتجاهات الصحف فمنها ما هو حزبي ومنها ما كان موالياً للخديوى، وثالثة تتحدث بلسان فئات معينة، ورابعة موالية للاحتلال، وخامسة تحاول إثبات وجودها فأدلت بدلوها، كل تلك الاتجاهات بما لها أو عليها، أثرت الحياة السياسية فى العقد الأول من القرن العشرين وكانت أحد الأدلة على حيوية مصر.

عامل ثالث: وهو أن خطوة إسماعيل أباظة كانت نقطة تحول مهمة فى شكل العلاقات بين مصر وإنجلترا أو ربما أوغرت هذه الخطوة صدور البعض لأنه أخذ زمام المبادرة وأفسد عليهم ما كانوا يفكرون أيضاً فى فعله ولم تواتهم الشجاعة.

صفوة القول أننا على الصورة السالفة كنا أمام اتجاهين، اتجاه مضاد لوفد إسماعيل أباظة وعلى رأسه الحزب الوطني ومن كان يدور فى فلكه، وآخر على رأسه حزب الأمة وحزب الإصلاح وآخرين وكانت الظروف السياسية فى مصر بعد ذلك كفيلة بترجيح كفة الاتجاه الثانى على الأول وكان الترجمة العملية لذلك ما حدث بعيد ثورة ١٩١٩.

الوفد فى لندن:

كما أشرنا سابقاً، شد إسماعيل أباظة والذين معه الرحال إلى لندن، فغادروا البلاد فى ١٤ يوليو مستقلين الباخرة «إيجيبت» وفى مساء ٢٠ يوليو وصل الوفد إلى لندن حيث كان فى استقبال أعضاء الوفد المستر «فوكس بورن» سكرتير اللجنة البرلمانية المصرية الذى أبلغهم تحيات المستر «روبرتسون» عضو البرلمان. وبعد أن استقر بهم المقام فى فندق «المتروبول» وافقوا على قبول دعوة المستر فوكس لتناول الغذاء ظهر يوم الأربعاء ٢٢ يوليو بنادى حزب الأحرار للتعارف بينهم وبين أعضاء اللجنة البرلمانية، كما وافق أعضاء الوفد على الاجتماع مع أعضاء اللجنة البرلمانية بدار البرلمان مساء الخميس ٢٣ يوليو.

على أية حال بدأ البرنامج الرسمي للوفد فى اليوم التالي مباشرة أى ٢١ يوليو عندما قام أعضاؤه بزيارة المستر فوكس بورن بمكتبه بدار البرلمان الانجليزى رداً على زيارته واستقباله لهم، وهناك التقوا مع المستر «روبرتسون» حيث دارت بينه وبينهم الأحاديث فى مسائل شتى وأشار المستر «روبرتسون» عليهم بمقابلة السير «إدوارد جراى» وزير الخارجية، لأنه -أى- «روبرتسون» فاتح وزير الخارجية فى ذلك فلم يمانع، ولم يمانع أعضاء الوفد أيضاً.

وفى ظهر الأربعاء ٢٢ يوليو توجه الوفد حسب الاتفاق إلى نادى حزب الأحرار، والتقوا مع بعض أعضائه وبعد كلمات الترحيب من الجانبين، ألقى المستر روبرتسون كلمة فى الحضور، أثنى عليها إسماعيل أباظة ثم عقب الوفد بكلمة ألقاها نيابة عن الوفد إبراهيم الشوربجي(*). وقد تناولت الكلمة أحوال مصر منذ الاحتلال البريطانى وكيف أن إنجلترا أدارت الأمور فى مصر لصالحها ومن ثم كانت درجة التفاهم بين الأمتين تسير فى طريق عكسي وكان من الممكن أن تصل الأمور إلى درجة سيئة لولاً المبادرات التى قام بها بعض الإنجليز بزياراتهم لمصر ومن بعض المصريين بزيارتهم لإنجلترا لايجاد قدر من التفاهم بين الأمتين، لساءت الأمور أكثر وإذا كانت هذه المبادرات فى بدايتها إلا أن نتائجها ستكون مثمرة فى النهاية. وأشار الوفد فى كلمته أن الخطوة التى قام بها ستتبعها خطوات كثيرة وستكون نتائجها طيبة فى المستقبل.(١٧)

وفى الساعة الرابعة من يوم الخميس ٢٣ يوليو وحسب البرنامج المحدد التقى الوفد مع بعض قيادات حزب الأحرار وبعض أعضاء البرلمان الإنجليزي، وألقى الوفد كلمته على الحضور والتى تمحورت حول إجراءات إنجلترا فى مصر تجاه التعليم فأبان الوفد فى كلمته كيف أن الحكومة المصرية نفذت إرادة حكومة إنجلترا فى التعليم، وجعله حقل تجارب وما ترتب على ذلك من انحطاط التعليم وفساد الأخلاق وانحدار مستوى المعلمين وعدم استعمال لغة البلاد واسطة فى التعليم وأعطى الوفد أمثلة عن خطايا إنجلترا فى التعليم مثل تقليل البعثات وإلغاء القسم العالى بالمدرسة التوفيقية الذى يتخرج منه المعلمون الأكفاء، ومعاملة الأخيرين معاملة سيئة مما جعل معظمهم يستقيل ومن بقى منهم عين فى وظائف حكومية فخلت كراسي التدريس بمدارس الحكومة من المعلمين الأكفاء.

أيضاً تناول الوفد فى كلمته برامج التعليم، ففضلاً عن أنه سادها الخلط والنقص، فقد ألغيت منها بعض المناهج المهمة مثل التاريخ الطبيعى والكيمياء العضوية وغيرها من العلوم المشابهة، كذلك امتدت يد التخريب فهدمت بعض المدارس وألغت بعضها الآخر

وأنزلت ثالثة إلى درجة الكتاتيب وكيف أن مثل تلك الخطوات ترتب عليها أن الأهالى الذين يريدون تعليم أولادهم أرسلوهم إلى المدارس الأهلية والأجنبية.

ثم انتقل الخطاب ليتحدث عن أساليب العلاج والتى جاءت أفدح فعجز المعلمين يعالج من خلال استقدام مدرسين إنجليز وصفهم الخطاب بأنهم «مجردون من الكفاءة العلمية والخبرة بقواعد التعليم» ويعالج أيضاً من خلال أساليب أخرى أكثر ضرراً وعدد الخطاب أمثلة على ذلك فضلاً عن جعل التعليم باللغة الإنجليزية على حساب اللغة العربية وعندما علت الأصوات بالشكوى اضطرت الحكومة لادخال بعض التعديلات احتراماً للرأى العام وتمويها عليه.

تطرق خطاب الوفد أيضاً إلى البعثات وكيف أن معظمها يرسل إلى إنجلترا وليس إلى أحسن المعاهد العلمية، كما تناول مسائل أخرى مثل زيادة المصروفات المدرسية زيادة باهظة وسن لوائح وقوانين صارمة وعقيمة ... وفى ختام الخطاب أشار إلى عدة أمور:

الأول: إن إطالة الوفد الحديث عن التعليم «لأن المعارف من أعظم أسباب سعادة الحياة فى كل أمة وفى كل بلد» وأن ما قاله الوفد تؤيده المستندات.

الثاني: طلب مساعدة أعضاء البرلمان من الحكومة ألا تستخدم السياسة فى أمور التعليم وأن تفتح الحكومة المصرية أبواب التعليم لطالبيه وأن تنفق عليه بسخاء.

الثالث: أشار الوفد إلى خطورة الاتجاه إلى أقطار أخرى لطلب العلم وما فى ذلك من تأثير بالسلب بسبب استقطاب العناصر الشابة المتعلمة للاستفادة منها فى بلاد أخرى وهو ما يشكل على حد قول الوفد خسارة لمصر ولبريطانيا.

الرابع: أشار خطاب الوفد إلى أن الجهل «يزيد سوء التفاهم بين أمتكم والأمة المصرية ويجعل الخلاف والنفور بيننا وبينكم إلى الأبد وهو ما لا يفيدكم ولا يفيدنا».

الخامس: «إن التعليم النافع الصحيح بلا شك أحسن واسطة تؤهلنا إلى الحرية وتوصلنا إلى الاستقلال الذى هو من حقوقنا الطبيعية والذى كان من أعظم الوعود

والعهود التى وعدتها حكومتكم للأمة المصرية وتعهدت بها للدول الأوروبيةعلى لسان رجالها الرسميين»[١٨].

ولم يمر الخطاب المصرى مرور الكرام على أعضاء البرلمان الحضور فهاجمه بعضهم وطلب منع رجال الوفد من مقابلة وزير الخارجية، وهو ما عارضه المستر روبرتسون ودافع بشدة عن وجهة النظر المصرية وطالب بضرورة أن يتم الوفد برنامج زيارته، كما وجه البعض الآخر أسئلة إلى الوفد بشأن ما ورد فى الخطاب قام بالرد عليها بعض أعضاء الوفد.[١٩]

على كل حال فإنه بناء على ما سبق، ومن خلال الخطاب المصرى والرد عليه يمكن التوقف أمام عدة أمور:

* جاء التعليم على قائمة الأولويات فى إطار حركة الوفد، وإفهام الإنجليز أثر بلادهم السلبي على التعليم وهى مسألة تحسب للوفد. ومسألة التعليم وإثارتها بهذه الصورة يرتبط بما كان دائراً خلال تلك المرحلة حول الدعوة لإنشاء جامعة، وكذا الصراع الذى خاضه سعد زغلول فى نظارة المعارف ضد سياسة المستشار الإنجليزى دنلوب.

* عول الوفد كثيراً على حزب الأحرار وكذا اللجنة البرلمانية، ولكنه نسى أو تناسى أن ما يحدث من صراع سياسي بين الأحزاب إن هو إلا جزء من الحياة السياسية فى بريطانيا فلم يثبت أن أحد السياسيين أو أحد الأحزاب سعى فى غير مصلحة بلاده. وهذا التعويل وقع فيه من جاءوا بعد إسماعيل أباظة و هى مسألة على أية حال لا تحسب للوفد. ولكن هل كان أمام الوفد ومن أتى بعده سبيلاً غير ذلك؟!.

* ما يحسب للوفد أنه طرح قضية الاستقلال، صحيح أنه لم يكرر كلمة الاستقلال سوى مرة واحدة فى رده على كلمة روبرتسون ولم يقرنها بانسحاب إنجلترا إلا أنه على كل حال طرح جديد فى المسألة المصرية.

* نبوءة الوفد بأن ما يدور فى إنجلترا الآن من خلال الوفد، هو خطوة أولى ستتبعها خطوات، جاءت صحيحة، فلم تمر بضع سنين حتى كانت مفاوضات سعد - ملنر ١٩٢٠.

على أية حال فحسب البرنامج كان أهم اللقاءات، لقاء وزير الخارجية «إدوارد جراي» والذى كان محدداً له الأثنين ٢٧ يوليو وقبل اللقاء كان الوفد قد أعد مذكرة تضمنت أهم المطالب العامة التى رأى أعضاء الوفد أنها ستكون أساساً للمناقشة مع وزير الخارجية.(٢٠)

وقد أشارت المذكرة إلى أن ما فيها يعبر عن رأى عدد كبير من المشتغلين بالمسائل السياسية وغير المشتغلين بها فى مصر والمتعلقة بما نحن فى حاجة إليه من الإصلاحات الدستورية وغيرها وأن «الاهتمام بتلك الآراء والعناية بها يساعد حكومتكم على الوفاء بالعهود والوعود التى كررتها مراراً من عهد اللورد دوفرين إلى الآن فى كثير من المواقف الرسمية» ومن أهم تلك الوعود «سعي الحكومة البريطانية واجتهادها فى تمكين المصريين من الاستقلال وإدارة شئونهم بأنفسهم» ثم عرجت المذكرة إلى الحديث عن توسيع نطاق سلطة الأمة وكيف أنه لا توجد بوادر تدل على الاهتمام بوضع أى نظام واف يشتمل على توسيع سلطة الأمة حتى يتسنى لها أن تستقل بأمرها وتدير بنفسها شئونها سواء كانت العمومية أو الإقليمية.

أيضاً أوضحت المذكرة كيف أن مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية بلا سلطة تشريعية كما احتج المصريون فى المذكرة على ما تراه حكومة إنجلترا من أن الشعب المصرى «لم تتوفر فيه إلى الآن الصفات اللازمة بأن يتولى بنفسه إدارة شئونه» وكيف أن ما تراه إنجلترا بعيد كل البعد عن الصواب.

انتقلت المذكرة بعد ذلك إلى مطالب المصريين والتى حصرتها فى منح الأمة المصرية حكومة نيابية من خلال توسيع سلطات الهيئات التى يقال أنها نيابية. وكذا منح مجالس المديريات سلطات الحكم الذاتي من خلال توسيع نطاق سلطاتها والتى من الممكن أن تخولها سلطة ضرب رسوم وقتية على الأطيان تفرضها بمعرفتها بعد تصديق

الجمعية العمومية عليها فى سبيل التعليم بجميع درجاته التى تراها أفيد وأنفع لمصلحه الأمة تحت مراقبة الحكومة. أيضاً أشارت المذكرة إلى مسألة التعليم ثانية من ناحية أن نظامه غير منطبق على مصلحة أبناء مصر وأنه فى حاجة إلى تغيير كامل وأن ذلك يتم من خلال إعادة المواد المهمة التى تم حذفها من المناهج وزيادة إنشاء المدارس العليا لتخريج أساتذة أكفاء وزيادة عدد طلاب الإرساليات وإرسالهم إلى أشهر المعاهد العلمية الأوروبية وأن يكون لمجلس شورى القوانين حق إبداء الرأى والموافقة على جميع نظم وقوانين ولوائح التعليم.

أيضاً طالبت المذكرة من إنجلترا أن تساعد حكومة مصر فى الحصول على مصادقة الدول لأن تسمح للمحاكم المختلطة بأن تمارس حقها الممنوح لها فى قانونها وهو النظر والفصل فى جميع الجنح والجنايات «والتى تقع من الأوروباويين، كما تنظر الآن وتفصل فى المسائل المدنية المتعلقة بهم».

كما طالبت المذكرة بتعيين الأكفاء من المصريين فى الوظائف العليا خاصة وأن المتبع الآن ليس فقط تعيين الإنجليز فى الوظائف التى يسهل على المصريين أن يقوموا بها بل تعيينهم فى الوظائف التى كان يشغلها المصريون.(٢١)

والمتأمل فى المذكرة المصرية، يجب عليه التوقف أمام أمرين:

الأول: أن كلمة الاستقلال التى وردت فى المذكرة هي مسألة وإن كانت تحسب للوفد، إلا أنها لم تكن تعني المعنى الواسع للاستقلال، ولكن بمنطوق المذكرة تعني توسيع نطاق سلطة الأمة من خلال منح الأمة حكومة نيابية وتوسيع سلطات مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية وكذا مجالس المديريات وهي ما يمكن أن يطلق عليه «الحكم الذاتي».

الثاني: أكدت المذكرة مرة أخرى على مسألة التعليم بكافة درجاته وهي مسألة تحسب للوفد، ولكن تحقيق ما طالبت به المذكرة كان فى حاجة إلى وقت طويل. كما

أظهرت المذكرة فى نفس الوقت أن التعليم كان أحد المجالات الحيوية والمؤثرة فى إطار حركة إنجلترا فى مصر.

على أية حال فقد رد وزير الخارجية فى كلمته على مذكرة الوفد المصرى وتبنى الدفاع عن موقف إنجلترا والإصلاحات التى قامت بها فى مصر...وبالطبع كان على الوفد أن يرد على كلمة وزير الخارجية ومدافعاً عن مطالب مصر.

وأنهى وزير الخارجية تعقيبه على المذكرة المصرية قائلا «إنكم تطلبون أن تسيروا بسرعة ويظهر لي أن الحكومة تسير فى طريق الإصلاح ببطء وإني أجاهر لكم بأن كلا الأمرين غير محمود وخير الأعمال ما كان فى منهج الاعتدال لهذا فإنني سوف أعدكم بأنني سأوجه كل عنايتي واهتمامي بمطالبكم وأعمل لصالح بلادكم ولخير أمتكم بكل ما يصل إليه حد استطاعتي واجتهادى .... وأن لي عظيم الأمل بأن تثقوا وأن تعتقدوا بأن الحكومة الإنكليزية تود وتتمنى لمصر كل خير وسعادة ثم كلما صادفكم من التصرفات التى يظهر لكم أنها تؤدى لغير هذه الأمنية الحقيقية فتأكدوا أنها لم تحصل والأخطاء عن حسن نية إذ لا يوجد إنسان معصوم من الخطأ.

وإني وزملائي وزراء حكومة جلالة الملك لا يتأخرون عن إجابة كل مطلب عادل ولا يدخرون وسعاً فى انتهاج كل منهج يساعد المصريين على استقلالهم فى بلادهم ويساعدنا على الوفاء بوعودنا التى وعدناها ليعلم المصريون كافة أن استقلالهم بين أيديهم دون غيرهم فإن شاءوا استعجلوه وإن شاءوا استأخروه وعملوا لتأخيره».(٢٢)

ومن خلال الحوارات التى دارت بين الوفد ووزير الخارجية يمكن التوقف أمام عدة أمور:

* أن الوفد أعاد طرح نفس الموضوعات التى طرحها مع بعض أعضاء البرلمان وهي مسألة تؤكد محدودية مطالب الوفد.

* يدخل فى مسألة محدودية المطالب، أن الوفد لم يتعرض لا فى هذه المرة ولا فى لقائه مع أعضاء البرلمان لمسألة الجيش وتقويته بعد أن عبثت به إنجلترا ولكن يبدو، بل

على الأرجح أن أعضاء الوفد خشوا الاقتراب من هذه المسألة لأنها من وجهة نظر الإنجليز غير قابلة للحوار، ومن ثم أراح أعضاء الوفد أنفسهم من عناء الخوض فيها.

لم يبد أعضاء الوفد فى تقريرهم أى تعقيب على كلام وزير الخارجية حول «العمل لخير مصر» ومهمة «إنجلترا العظيمة فى مصر» وكيف أن وزير الخارجية ألقى بالكرة فى ملعب المصريين عندما أشار إلى أن استقلال مصر بيدها دون غيرها، وهذا إسراف فى حسن الظن من الوفد تجاه الإنجليز وهو ما لا يحسب له.

على أية حال فقد أرسل وزير الخارجية تقريراً ضافياً إلى المسئولين الإنجليز فى مصر، عن المقابلة وما دار فيها ولم يختلف التقرير عما أوردناه سابقاً إلا فى الجزئية التى أشار فيها وزير الخارجية وعبر فيها عن إعجابه بهذه المجموعة عندما وصفها بأنها «الجناح المعتدل من حزب الإصلاح فى مصر»[٢٣] وهو ما جعل البعض يعلق قائلا «ولا ندرى من أين جاء بهذا الوصف لأن أعضاء الوفد لم يدعوا بأنهم يمثلون سوى أنفسهم».[٢٤]

أيضاً فى إطار لقاءات ومقابلات الوفد، أقام أعضاؤه مأدبه بفندق «المتروبول» بلندن فى مساء ٢٨ يوليو حضرها لفيف من أعضاء البرلمان الانجليزى وكذا بعض الكتاب والسياسيين الانجليز أيضاً وبعض مراسلي الصحف والوكالات التلغرافية وبعض المصريين المقيمين فى لندن. وفى الكلمة التى ألقاها الوفد أعاد على أسماع الحضور ما قاله مع أعضاء البرلمان وكذا وزير الخارجية وزاد على ذلك مطالبة الرأى العام الإنجليزى تعضيد مطالب المصريين لكي تنفذها الوزارة. ولم يخل الخطاب المصرى من إسراف فى حسن الظن بالإنجليز والإشادة بما قدمه بعض الإنجليز العاملين فى مصر.[٢٥]

أما آخر اجتماعات ولقاءات الوفد فكانت فى ٣٠ يوليو وكان اللقاء فى سراى أحد سراة لندن والعضو المشارك فى مؤتمر السلم العام، والذى كان يعقد جلساته فى فندق «المتروبول» وقد دعى إلى هذا الحفل معظم أعضاء المؤتمر، ووجدها الوفد المصرى فرصة لعرض وجهة النظر عن الحركة الموجودة فى مصر وكيف أنها ليست حركة هياج، كما

روجت لها بعض الأقلام الأوروبية وكيف أنها حركة طاهرة سلمية ولابد منها لكل أمة فى أدوار الانتقال الأولى من قديم إلى حديث أو من حسن إلى أحسن، وكيف أن هذه الحركة نشأت عن عدة ظروف وأسباب أخصها انتشار التعليم وارتقاء المدارك ومعلوم ما يترتب على مثل ذلك من تمزيق الأغشية الأصلية وتكوين أغشية أخرى جديدة تناسب ما يحدث من النمو فى شعور الأمة وفى معارفها. وقد انضمت إلى هذه الحركة العلمية حركة سياسية وأخرى مالية.

وبعد أن تناول الوفد بالشرح الحركتين السياسية والمالية وأسبابهما انتقل الخطاب المصرى إلى الحديث عن مسألة التعصب الديني وكيف أننا فى بلادنا وفى لغتنا لا نعرف معنى للتعصب الديني أو الجنسي، وأن من يدّعى بوجود ذلك لابد وأن يكون قد استند فى دعواه إما على حوادث معينة معلومة أو ما يتوهمه من الهواجس النفسية التى تجيش فى الصدور أو تخطر بالضمائر.

أيضاً تناول الخطاب المصرى علاقة مصر بالدولة العثمانية وكيف أن مصر تفخر بسيادتها عليها ولكن بشرط المحافظة على استقلالها الإدارى والحقوق التى منحت لها بمقتضى الفرمانات المكفولة بضمانات الدول الأوروبية. أيضاً تناول الخطاب المصرى مسألة الصحف ودورها فى مصر وما يثار حولها من قبل الإنجليز وكيف أن الصحف تفيد الأمة لأنها كالصمام للشعور الوطنى ومنبهة له حتى لو كانت فى بعض الاحيان مقلقة.

وأهاب الوفد فى ختام كلمته بالحضور أن ينصفوا مصر أمام ضمائرهم وأمام المعتدين عليها وأن ينشروا من مصر الحقائق فى كل مكان.(٢٦)

ولا يمكن للمتابع لكلمة الوفد إلا التوقف أمام عدة حقائق:

* ما يحمد للوفد فى هذه الكلمة أنها شملت موضوعات مختلفة بعض الشيء عما طرح من قبل فالقضايا السابقة خصت بالأولى العلاقة بين مصر وإنجلترا، أما القضايا الأخرى مثل التعصب الدينى والجنسى وحركة الأحزاب فى مصر وكذا حركة

الصحف فإنها مست الوجود الأجنبى فى مصر بشكل عام. ومن ثم جاءت لغة الخطاب مختلفة هذه المرة.

* ما يحسب للوفد أيضاً تحليله لوظيفة الصحافة ودفاعه عنها، فهي مسألة كشفت عن فهم عميق للمسألة ولم لا؟ فرئيس الوفد كان صاحب جريدة شهيرة هي «الأهالي» والتى صدر العدد الأول منها فى أول سبتمبر ١٨٩٤ كما أشرنا قبلاً.

* ما لا يحسب للوفد أنه فى حديثه هذه المرة عن مسألة الاستقلال، تناول معها العلاقة مع الدولة العثمانية وصار الاستقلال بهذه الصورة لا وجود له فهو استقلال يلغيه وجود إنجلترا والأجانب والتبعية العثمانية.

على كل حال ففي الوقت الذى كان يتحرك فيه الوفد فى لندن بالصورة التى عرضنا لها، كانت الصحف فى مصر تحاول تقصي الأخبار لتحدد المواقف ومن ثم جاءت ردود الأفعال، فعلى الجانب المؤيد وقفت المؤيد لسان حال حزب الإصلاح ومعها «الجريدة» لسان حال حزب الأمة وانضمت إليهما المنبر ليشدوا جميعاً من أزر الوفد ويباركون خطواته.(٢٧)

أما الجانب المعارض فكان من الطبيعى أن يكون اللواء لسان حال الحزب الوطني وهو الامتداد الطبيعي والمستمر لموقف الحزب الوطنى من الوفد منذ بداية ظهوره كفكرة وحتى الآن.(٢٨)

يستدعى هذا العرض المبسط التوقف أمام بعض الأمور:

الأول: أنه بإلقاء نظرة بسيطة على المواقف المختلفة نجد أن أغلبها وقف مؤيداً لخطوة الوفد وهو ما يؤكد اتجاه البورجوازية المصرية لقيادة العمل الوطني من خلال التعامل مع الإنجليز مباشرة ووضع اللبنة الأولى فى بناء الحصول على حقوقنا خطوة خطوة طالما أن إخراجهم بالقوة خلال تلك المرحلة غير مجد، خاصة وأن خيار استخدام القوة لم يكن مطروحاً ضمن برامج الأحزاب آنذاك؟!.

الثاني: إن موقف الحزب الوطني، سببه أن القيادة الثانية للحزب والمتمثلة فى محمد فريد تصورت بشكل خاطىء أن وجهة نظرها فى هذه المسألة، تمثل أغلبية الرأى العام، ونسيت تلك القيادة أن هناك قوى أخرى على الساحة لها توجهاتها. وهي مسألة أوقعت الحزب الوطني فى مأزق لم يستطع التخلص منه وهو ما أدى إلى تآكل دور الحزب تدريجياً.....

الثالث: الأغلبية التى أيدت خطوة الوفد كانت بداية رصيد تدريجي خدم كثيراً البورجوازية المصرية التى تمثلت فى حزب الوفد، عندما دخلت مرحلة التفاوض مع الإنجليز إبتداء من سنة ١٩٢٠ (مفاوضات سعد - ملنر).

الرابع: إن إطلاق اسم الوفد المصرى على حزب الوفد صاحب الدور السياسي الكبير، لم يكن من فراغ فهذه التسمية أطلقتها بعض الصحف على وفدنا موضوع الدراسة، ومن ثم يصبح حزب الوفد بقيادة سعد من ناحية ومن ناحية التسمية والتعامل مع القضية الوطنية هو الخطوة الثالثة للبورجوازية المصرية إذا وضعنا فى الحسبان أن زيارة صاحبي المنار والمؤيد للندن فى صيف ١٩٠٧ كانت الخطوة الأولى.

عودة الوفد:

بعد أن أنهى الوفد مهمته حسب الخطة الموضوعة غادر لندن فى ٣١ يوليو ووصل باريس فى الأول من أغسطس وأثناء وجود الوفد هناك أجرى مصطفى توفيق الجراحي صاحب جريدة «الصحافة» حديثاً مع بعض أعضاء الوفد قام به نيابة عن الوفد عبد اللطيف الصوفاني بسبب غياب إسماعيل أباظة. وقد تناول الحديث موضوعات شتى منها نفي الصوفاني من أن تراجع بعض الشخصيات عن السفر مع الوفد جاء بسبب برنامج الوفد. أيضاً نفى الصوفاني أن يكون وراء تحركهم هذا أحد غيرهم، أيضاً تطرق الحديث إلى ما دار فى لندن بالصورة التى عرضنا لها، كما ورد فى الحديث أن الوفد نجح فى إزالة سوء التفاهم بين المصريين والإنجليز وأنه تمكن من التوفيق بين المصالح المصرية

والإنجليزية، وكيف أنه سيحصل المصريون قريباً على الدستور وكيف أن رجال الوفد يثقون كثيراً فى رجال السياسة فى إنجلترا وخاصة رجال حزب الأحرار.(٢٩)

أيضاً تستدعى مسألة هذا الحديث التوقف أمام عدة حقائق:

* أن الوفد كانت لديه قناعة كاملة بأن الطفرة فى سبيل الحصول على الحقوق ضررها أكثر وأن التدرج هو الأسلوب الأمثل، فالاستقلال يجب أن يسبقه إصلاح نظام التعليم والنظام النيابى.

* الربط الواضح بين مصالح هذه الشريحة المؤثرة من البرجوازية المصرية وبين قضية الوطن، هذا التوحد الذى جعلها تقدم على خطوة التعامل مع الإنجليز بهذه الصورة، لأنه لم يكن أمامها من سبيل آخر كما أشرنا.

* كانت هذه الشريحة التى قادت العمل الوطني خلال هذه المرحلة واثقة مما أقدمت عليه بل كانت نبؤتها بأن المساعى فى المستقبل أكثر نفعاً وهو ما حدث بالفعل.

* ثقة رجال الوفد فى رجال حزب الأحرار مسألة تؤكد عدم الفهم الكامل لرجال الوفد المصرى للعبة السياسة بين الأحزاب فى إنجلترا.

على كل حال فقد استمر الوفد بباريس حتى ١٦ أغسطس ثم غادرها فى نفس اليوم إلى فيشى وفى اليوم التالى سافر إلى جنيف وهناك أجرى محمد فهمى أحد الموالين للحزب الوطني والأستاذ بكلية الحقوق، حديثاً مع الوفد ورغم أن معظم ما ورد فى الحديث لم يكن جديداً إلا أنه ورد فى الحديث بعض المسائل التى يجب التوقف أمامها فقد نفى الوفد أن سفره كان بإيعاز من أحد ولكن كما أشرنا جاء سفر الوفد بمباركة من الخديوى.

مسألة أخرى: وردت فى الحديث عن مدى استجابة أعضاء البرلمان الذين التقى الوفد بهم مع المطالب المصرية فأشار الصوفاني أنه يثق فى صدق وعودهم نحو تحقيق الإصلاح وهى فى تصورنا ثقة فى غير محلها.

مسألة ثالثة ففى سؤال لمحمد فهمي عن الجلاء وهل طلبوه، جاء الرد بأن «هذا الطلب لم يكن مستقلاً كالطلبات السابقة ولكن جاء أواخر طلباتنا، إننا ذكرناهم بالوفاء بوعودهم وعهودهم التى جاهر بها رجال سياستهم وعلمها العالم أجمع» وهى مسألة تعد حجة على الوفد فجوهر القضية هو الجلاء، ولكن قدموا عليه الإصلاحات وجعلوه آخر طلباتهم ومن ثم كان على المصريين الانتظار ما يقرب من نصف قرن حتى يتحقق الجلاء الذى أجبرت عليه إنجلترا فى ظل ظروف دولية ومحلية كان من الصعب تجاهلها.

وعن خطة الحزب الوطنى وكيف أنها لا تختلف كثيراً عن البرنامج الذى أعلنه الوفد خاصة وأن مصطفى كامل كان قد زار إنجلترا منذ عامين مسجلا سبقاً على الوفد، جاء سؤال محمد فهمي، فكان رد الصوفاني «إن الخلف اتخذ خطة أخرى، وأن الوفد دافع عن الحزب الوطني أثناء اللقاءات المختلفة وكيف أن كل طلبات الحزب الوطني طلبات حق وعدل وإن كنا نعتقد أن مديرى شئونه مع إخلاصهم فى وطنيتهم وحبهم لسعادة أمتهم متخذون على زعمنا طريقة الخفة والطيش وحب المظاهرة الذى تخاف عاقبتها». أما إسماعيل أباظة فقد زاد على ذلك قائلا «إنه حزب قول لا عمل، هؤلاء مطالبهم المظاهرات وجر العربات».

وعن سؤال حول إمكانية التعاون مع الحزب الوطني جاء رد إسماعيل أباظة «عند عودتي إلى مصر سأسعى فى عمل لجنة من خواص القوم يتداخلون بحكمتهم عند اللزوم لايقاف كل حزب عند حده حتى نأمن كل ما نخاف عقباه خصوصاً وأن عدونا لنا بالمرصاد وقد كاشفت زملائي بذلك» ثم قال فى نهاية الحديث «وعند عودتي سأحاربه بكل قواي» فجاء تعليق محمد فهمي «كيف ذلك أتحارب الوطن؟!»(٣٠)

والعلاقة بين الحزب الوطني وبعض رجال الوفد بالصورة السابقة تجعلنا نتوقف أمام أمرين.

الأول: إن العداء المتبادل بين الطرفين ناتج عن أسلوب العمل على الساحة فالحزب الوطنى يرى أن قضية الجلاء وخروج الإنجليز تأتى على رأس القائمة، وأن تحقيق ذلك

يتم من خلال الاستعانة بقوى أخرى مثل فرنسا والتأكيد على تبعيتنا للدولة العثمانية والمسألة الأولى فى تصورنا انتهى أمرها منذ الوفاق الودى ١٩٠٤، أما الثانية فتناقض الاستقلال المنشود.

أما رجال الوفد فأسلوب العمل يأتي بالشكل العكسي فطلب الاصلاحات يأتي أولاً ثم يعقبه طلب الجلاء وكان يقلقهم الأسلوب الذى تلجأ إليه قيادات الحزب وكذا جريدة اللواء من إثارة الناس، لأنه أسلوب يضر أكثر مما ينفع فهو من وجهة نظرهم يهدد مصالح البلاد وكذا مصالحهم الشخصية.

الثاني: إن ما أشار إليه محمد فهمي فى آخر الحديث حول التوحد بين الحزب الوطني والوطن ألقى الضوء على قضية مهمة فى الحياة السياسية المصرية وهي احتكار الحديث عن قضايا مصر ومصادرة الرأى الآخر وهو ما أزعج الأطراف الأخرى، وأتصور أنها إحدى المسائل التى أضعفت حركة الحزب الوطني وجعلته مستهدفا من الآخرين.

على أية حال فقد غادر الوفد جنيف إلى ليون فى ١١ أغسطس ومنها إلى فينير وتريستا وفى ١٣ أغسطس غادر تريستا فوصل الإسكندرية فى السادسة من صباح الإثنين ١٧ أغسطس[٣١] وتوالت ردود الأفعال.

بالنسبة للحزب الوطني أعلنها حرباً شعواء وصلت إلى حد رمى أعضاء الحزب بالخيانة وحفلت صحيفة اللواء بالاتهامات من قبيل، الوفد الإحتلالي، وكيف أن رجال الوفد هم سفراء استسلام ونذر استعباد.[٣٢]

وكانت اللهجة العنيفة التى تحدثت بها اللواء عن الحزب، كافية لتتصاعد الأمور بشكل سيء ففي ١٤ سبتمبر ١٩٠٨ قصد محمد فريد وبعض رجال الحزب مدينة الزقازيق لإلقاء كلمة فى ذكرى دخول الإنجليز مصر، ففوجيء بمظاهرة تهتف ضده وحاول المتظاهرون منع الأحتفال فتصدى لهم البوليس، وأتهم رجال الحزب الوطني الأباظيين بأنهم وراء المظاهرة وهو ما سارع إسماعيل أباظة بتكذيبه ونفى التهمة عنه وعن الأسرة الأباظية.[٣٣]

على الجانب الآخر لم يعدم الوفد الأباظي من يدافع عنه فوجد فى صحف الجريدة، والمؤيد، والأهرام، والمنبر، مصر، الأفكار، التأييد والدفاع والمعاونة.(٣٤)

والمتأمل فى موقف المؤيدين يجد أنه لكل وجهة نظرة فحزب الأمة هو نفسه رافع شعار مصر للمصريين والتخلص من التبعية العثمانية وهو نفس الحزب الذى خرج من عباءته جماعة حزب الوفد بقيادة سعد زغلول وهي الجماعة التى دخلت فى مفاوضات مع الإنجليز بداية من سنة ١٩٢٠ وفتحت الباب على مصراعيه لمفاوضات أخرى باشرها غيرهم.

أما حزب الإصلاح فذهاب قيادته فى العام السابق إلى لندن والالتقاء ببعض الساسة الإنجليز هناك يؤكد أن اتجاه إسماعيل أباظة ومن معه راق كثيراً لرجال الحزب وهو ما جاء على صفحات المؤيد.

وأما جريدة الأهرام، فأصحابها يتمتعون بالرعوية الأجنبية ومن ثم يهمهم أن تكون الأمور هادئة فى مصر من خلال حسن العلاقة بين الطرفين المصرى والأجنبي، ومن ثم يكون هذا الاتجاه هو المؤدى إلى حسن تلك العلاقة.

أما المنبر فطبيعي أن يكون موقفها هكذا فصاحبها زار لندن فى العام السابق مع صاحب المؤيد والتقيا -كما أشرنا- مع بعض ساسة الإنجليز ومن ثم كان ترحيبها بالوفد.

أما جريدة مصر فكان تأييدها للوفد لمواجهة الحزب الوطني والنيل منه، وكان تصويرها لقضية الجلاء والاستقلال والدستور والمجلس النيابي تصورا قاصرا، وصارت تنفخ مع غيرها فى بوق الفتنة فكان ما كان سنة ١٩١١.

أما الأفكار ففي تأييدها كانت تمثل اتجاها خاصا بها، وهو اتجاه أخذ فى طريقه العداء للحزب الوطني.

وفى النهاية تبقى كلمة، أننا لو حسبنا بحسبة بسيطة حجم المعارضة بالنسبة لحجم التأييد، وجدنا كفة الأخيرة أرجح، ومن ثم يكون الاتجاه الموالي للتفاهم مع الإنجليز بدأ يشق مسارا له، ودفعته إلى ذلك دفعا مجموعة عوامل هي فى تصورنا:

الأول: موقف فرنسا منذ الوفاق الودى سنة ١٩٠٤.

الثانى: الاتجاهات الجديدة فى تركيا.

الثالث: سيطرة إنجلترا على معظم شرايين الحياة فى مصر ومن ثم تكون مع الوقت اعتقاد راسخ لدى البرجوازية المصرية بصعوبة إخراجها من مصر، ومن ثم كان التفاهم هو البديل المطروح حفاظا على مصالح الوطن ومصالحها ومن هنا جاء دورها الفاعل.

خاتمة:

وفى النهاية يمكن إجمال أبرز المسائل التى عالجتها الدراسة فيما يلي:

* إن فكرة هذا الوفد لم تكن فجائية فخطوة صاحبي المؤيد والمنبر سنة ١٩٠٧ كانت التمهيد الفعلي، كما جاءت خطوة هذا الوفد لتمهد لحزب سعد زغلول.

* إن تخلف بعض الأعضاء الذين اتفق معهم إسماعيل أباظة على السفر إلى لندن يرجع فى تصورنا إلى الخوف من نتائج هذه الخطوة ورد فعلها على المستوى الشعبي أكثر من الأعذار التى أبدوها.

* أعطى الخديوى الضوء الأخضر لسفر الوفد، وهي مسألة ضمن إطار سياسة الوفاق مع المعتمد البريطاني الجديد «جورست» والتى كان ضمن أهدافها إضعاف دور الحزب الوطني من خلال تصنيع قوى جديدة لها رؤية مختلفة.

* ما لا يحمد للوفد المذكور جعل قضية الجلاء فى نهاية المطالب وقدم الإصلاحات الداخلية بل شبهها -على حد قول بعضهم- «بالكماليات» يجب أن تسبقها الضروريات. كما لا يحمد للوفد تصوره المشوش لاستقلال مصر، فكيف يكون الاستقلال مع وجود الإنجليز والاعتراف بالتبعية العثمانية ووجود الامتيازات، كما لا يحمد له عدم تعرضه لقضية الجيش المصرى حتى ولو كانت الأبواب ستغلق فى وجهه فور الحديث عنه. كما لا يحمد له حسن ظنه الزائد بصناع السياسة الإنجليزية.

* ثبت من خلال تناول القوى المختلفة لمسألة هذا الوفد، أن بعضها كانت رؤيته لقضية الاستقلال والمجلس النيابي تام السلطة، رؤية قاصرة.

* أنه رغم بعض المآخذ على الوفد، إلا أن المثير أن الطريق الذى سار فيه نحو التفاهم مع الإنجليز، ثبت من خلال الدراسة أنه وجد قبولا أكثر من الاتجاه المتشدد، وهو ما يجعلنا نقول أن الاتجاه الموالى للتفاهم مع الانجليز بدأ يشق مساره فى العلاقات المصرية البريطانية.

* التصور الخاطىء للحزب الوطني بأنه المتحدث الأول باسم مصر قاده لتكفير الآخرين ورميهم بالخيانة، وهو ما جعلهم يتصدون له، بل كان هذا التصور سببا مباشرا فى حدوث أول انشقاق فى الحزب ولم يكن قد مر على تكوينه بضع شهور.

الهوامش

(١) أحمد شفيق، مذكراتي فى نصف قرن، الجزء الثانى، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٤، صـ١٥٢.

(٢) وعن ميلاد ونشأة وحياة إسماعيل باشا أباظة: انظر: مصطفى الشهابى، إسماعيل أباظة، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٦٧ صـ صـ ٩، ١٠، ١٢، ١٠٣، ١٧٠، ١٧٤، ٢٠٢

(٣) الأهرام ١٣/٧/ ١٩٠٨، اللواء ١٤/٧/١٩٠٨ وقد أضاف أحد المصادر اسماً آخر إلى هذه المجموعة وهو محمد عثمان بك أباظة. انظر: مصطفى الشهابي، المرجع المذكور صـ١٧٥.

(٤) عبد القادر حاتم وآخرون، المقاومة الشعبية فى الشرق. د. ت صـ٦٩

(٥) صلاح عيسى، البورجوازية المصرية وأسلوب المفاوضة، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٨٠ صـ١٠

(٦) كان قد سبق هذا الوفد بعام (يوليو ١٩٠٧) زيارة قام بها كل من أحمد حافظ عوض صاحب جريدة المنبر والشيخ علي يوسف صاحب المؤيد وطرحا أثناء الزيارة على بعض المسئولين فى لندن بعض المطالب مثل المزيد من مشاركة المصريين فى الإدارة، وكذا بعض المطالب الخاصة بالتعليم ولم يتطرفا إلى مسألة الجلاء وطلب الاستقلال عن ذلك انظر الأهرام ٢٩/٧/١٩٠٧ مقال «المصريون فى أوروبا» دون توقيع، عدد ٦/٨/١٩٠٧، عدد ١٩/٨/١٩٠٧ رسالة بعنوان «وليمة لندن» بتوقيع الدكتور بهجت بدوي.

(٧) أحمد شفيق المصدر المذكور صـ صـ ١٥٢، ١٥٣، أوراق محمد فريد، مذكراتي بعد الهجرة (١٩٠٤-١٩١٩) المجلد الأول، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٨ صـ صـ ٦١، ٦٢

(٨) الأهرام، ١٤/٧/١٩٠٨

(٩) اللواء، ٢٠/٧/١٩٠٨ حديث مع سعادة رئيس الحزب الوطني.

(١٠) اللواء ١٨/٧/١٩٠٨ مقال «الوفد المصرى بلوندرة «بقلم محمد فريد- وحول نفس الموضوع أدلى محمد فريد بحديث لجريدة النوفل التى تصدر بالإسكندرية، انظر اللواء ١٩/٧/١٩٠٨

هذا وقد زار المستر «روبرتسون» مصر فى أوائل سنة ١٩٠٧ (٢ يناير-٢ فبراير) وقد زار خلال الفترة المذكورة الإسكندرية والبحيرة والمنوفية والغربية والتقى مع المعتمد البريطاني وبعض الشخصيات المصرية على رأسها أحمد حافظ عوض والشيخ علي يوسف. عن هذه الزيارة والاستقبالات وحفل التوديع انظر: الأهرام ٢، ٣، ٤، ١٠، ١١، ١٢/١/١٩٠٧،

١٩٠٧/١/١٤ مقال «المستر روبرتسون» دون توقيع، ١٨،١٩٠٧/١/٢٣، وعن حفل وداعه انظر: عدد ١٩٠٧/٢/٢. هذا وقد رافقه فى رحلته أحمد حافظ عوض. انظر عدد ١٩٠٧/٢/٢

أما الدكتور روثر فورد رئيس اللجنة المصرية فى البرلمان الانجليزى فقد وصل مصر فى يناير ١٩٠٨ وزار بعض النظارات والمصالح الحكومية، وقد أقام له حزب الإصلاح حفل استقبال. انظر الأهرام ١٧،١٩٠٨/١/١٨.

(١١) أوراق محمد فريد، المصدر المذكور صـ٦٠

(١٢) مصر، يومية، ١٣/٧/ ١٩٠٨، ١٤/٧/١٩٠٨، مقال «وفد بلاد الانكليز» دون توقيع، ١٥/٧/١٩٠٨، مقال «وفد بلاد الانكليز واستقلال مصر» دون توقيع، ١٧/٨/١٩٠٨، مقال «الصوت المصرى فى أوربا» دون توقيع.

(١٣) المباحث السياسية، أسبوعية ١٥/٧/١٩٠٨ مقال «الوفد الأباظي من أرسله؟» دون توقيع.

(١٤) الجريدة، يومية ١٤/٧/١٩٠٨ رسالة بعنوان «وفد قبطي فى لندن».

(١٥) المؤيد، يومية ١٤/٧/١٩٠٨، ١٧/٧/١٩٠٨ مقال «وفد الأعيان» دون توقيع، مقال «الوفد الأباظى ومستقبل مصر» بتوقيع ع.أ مقال «الوفد السياسي إلى إنكلترا» دون توقيع.

(١٦) المنبر ١٦/٧/١٩٠٨ مقال «وفد النواب» بقلم أحمد حافظ عوض، عدد ١٨/٧/١٩٠٨ مقال «الأمة ووفد النواب» بتوقيع م.ع الأورينى، عدد ٢٠/٧/١٩٠٨ مقال «الوفد المصرى بلندن» دون توقيع، وادى النيل ١٨/٧/١٩٠٨، عدد ١٢/٧/١٩٠٨ تعليق بعنوان «الأمة بين إحجام وإقدام» دون توقيع، عدد ١٤/٧/١٩٠٨ مقال «خطاب إسماعيل باشا أباظة» دون توقيع، الأهرام ١٥/٧/١٩٠٨ مقال «الدندرة» بتوقيع هي بن بي، الشرق، أسبوعية، ١٨/٧/١٩٠٨ مقال «وفد سياسى مصرى فى أوربا» بتوقيع سياسي عدد ١٤/٧/١٩٠٨ تعليق بعنوان «على الطائر الميمون - الوفد المصرى السياسى» دون توقيع.

(*) هو الدكتور إبراهيم الشوربجي الذى كان يكمل دراسة الطب فى إنجلترا، وهو من عائلة الشوربجي بالبحيرة وقد رافق الوفد طيلة وجوده فى إنجلترا: انظر: المنبر ٧/٩/١٩٠٨ «الوفد المصرى المبارك - بيان لابد منه».

(١٧) الأهرام، المؤيد ٢٤/٨/١٩٠٨ «الوفد المصرى -بيان لابد منه- تمهيد»، المؤيد ٢٧/٨/١٩٠٨ «الوفد المصرى يبدى رأيه»، الأهرام ٢٩/٨/١٩٠٨ «الوفد المصرى فى لندرة» الأهرام ١١/٩/١٩٠٨ «الوفد المصرى فى لندرة - بيان لابد منه»، المؤيد ١٢/٩/١٩٠٨ «الوفد المصرى يبدى رأيه - بيان لابد منه».

(١٨) المنبر ٢٧/٨/١٩٠٨ «الوفد المصرى المبارك»، ٢٩/٨/١٩٠٨ «بيان لابد منه».

(١٩) الأهرام ١٧/٩/١٩٠٨ بيان لابد منه، المؤيد ١٩/٩/١٩٠٨ بيان لابد منه.

(٢٠،٢١) الأهرام، المؤيد ١٩٠٨/٩/٢ بيان لابد منه.

(٢٢) الأهرام ١٩٠٨/٩/٢٣ بيان لابد منه.

(٢٣) F.O. 407/170/No.74 Sir Edward Gray to Mr. Graham, July 31,1908

(٢٤) الأهرام ١٩٩٧/٩/١٨ مقال «الأهرام ديوان الحياة المعاصرة-الوفد الأباظي إلى لندرة» بقلم يونان لبيب رزق.

(٢٥) الأهرام ١٩٠٨/٩/٨ بيان لابد منه، المؤيد ١٩٠٨/٩/٧ بيان لابد منه.

(٢٦) الأهرام ١٩٠٨/٩/١٤ بيان لابد منه، المؤيد ١٩٠٨/٩/١٥ بيان لابد منه.

(٢٧) المؤيد ١٩٠٨/٧/٣٠ مقال «الوفد المصرى فى لندن»، الجريدة ١٩٠٨/٧/٢٥ مقال «وفد الأعيان فى لوندرة، المنبر ١٩٠٨/٧/٢٢ مقال سعادة إسماعيل أباظة زعيم الوفد المصرى فى لندن.

(٢٨) اللواء ١٩٠٨/٧/٢٧ مقال «الوفد المصرى فى لندرة»، عدد ١٩٠٨/٨/٩ مقال «وفد لندرة تناسى أهم المطالب».

(٢٩) المنبر ١٩٢٨/٨/٢٤، اللواء ١٩٠٨/٨/١٣.

(٣٠) المنبر ١٩٠٨/٨/٢٤، اللواء ١٩٠٨/٨/٣١ حديث فى جنيف مع وفد لوندرة.

(٣١) المنبر ١٩٠٨/٨/٢٤ هذا وقد تخلف عن العودة إلى مصر كل من حسين القصبي الذى سافر من باريس إلى الآستانة لمقابلة عائلته هناك، وكذلك محمد شريعي ومحمد عثمان أباظة حيث توجها للاستشفاء فى جنيف. انظر: المصدر نفسه.

(٣٢) اللواء ١٩٠٨/٨/١٦ «خطبة حضرة رئيس الحزب الوطني»، اللواء ١٩٠٨/٨/١٧، ١٩٠٨/٨/١٨ مقال «نصيحة صريحة» بتوقيع أبو حفص، عدد ١٩٠٨/٨/١٩ مقال «مساعي وفد لوندرة»، دون توقيع عدد ١٩٠٨/٨/٢٠ مقال «كلمة اللواء فى الوفد الأباظي»(١) بقلم عبد العزيز جاويش، عدد ١٩٠٨/١٠/٣ مقال «كلمة اللواء فى الوفد الأباظي»(٢) بقلم عبد العزيز جاويش.

(٣٣) أوراق محمد فريد، المصدر المذكور جـ٦١ وعن رسالة إسماعيل أباظة إلى الصحف بشأن المظاهرة انظر: الأهرام ١٩٠٨/٩/٢٤، المؤيد ١٩٠٨/٩/٢٤ بيان حقيقة بقلم سعادة الفاضل الهمام إسماعيل أباظة باشا. وعن تفاصيل المظاهرة انظر: الاتحاد المصري، نصف شهرية ١٩٠٨/٩/٢٧ مقال «المظاهرات ضد الحزب الوطنى» دون توقيع.